بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ يسّر

الكتابة عن عمر الخيام شاعر الرباعيات تصدق عليها مقالة أبى العلاء المعرّى:

إن أقصى ما نستطيع هو أن نظن ونَحْدس، والبوْح باليقين لا يستوجب رفع الصوت، وإنما أن نطيل الهمس، ولا يمكن للشاعر أن يهتدى إلى أغراضه فى شعره إلاّ شاعر مثلُه، وليس من الإنصاف أن نقيّد الألفاظ على أهل الحكمة، فكلامهم يغلب عليه المجاز....

*****

كانت معرفتى بالخيّام الشاعر من خلال فيلسوف ألمانيا وشاعرها الحكيم جوته، وأحببت شعراء الفرس من وصفه لبلادهم بأنها موئل الحكمة وملاذ الحكماء، وأنها أرض الطُهر والصفاء التى يتعايش فيها الحب والغناء، والشراب والسلام.

ويقول جوته... إن الشعراء مثل حافظ والسعدى والعطار والخيام شعرهم يوقظ النجوم، ويُتغنى به عند الينابيع وعلى مشارف الحانات، ويغوى بالعشق حتى الملائكة! والشعراء محل غيْرة وحسد من غير الشعراء، لأن كلماتهم وقوافيهم مكانها الجنة والخلود!

*****

وعكفتُ على دراسة الخيام لأنه شاعر وفيلسوف، وطرازه فى الشعر والفلسفة طراز فريد، فشعره هو حياته، وحياته فيها الجزع واليأس والهموم والقلق.وفلسفته هى أفكاره التى يعيش بها ولها، وتزدحم فى رأسه فيسأل ويتحرى ويناقش ويحاور ويصاول ويجول، يريد أن يعرف عن الوجود والحقيقة، والخلْق والموت، والمعاد والقضاء والقدر. وينطلق لسانه فى عاطفة وحماس، وأروع الحديث ما كان عن عاطفة، وما كان صاحبه مشتعلاً بالحماس. ويضبط نفسه متلبساً بالتجديف على الله، وبالاجتراء على الحضرة الإلهية فيندم ويستغفر، ويعتذر كلما ضاق صدره بما لا يقال، ويتمنى لو يكون كالناس العاديين، وأن تسير مركب حياته فلا تضطرب فى بحار نفسه.

*****

والخيام يقول الشعر فكأنما يزجيه لنفسه، وكأنما يحاول به أن يطامن من مخاوفه، ويهدىء به من جيشان روحه، وكأنه يتعهد به نفسه بالتربية، ويعلمها الأخلاق، ويعوّدها الحكمة.

والخيام الفيلسوف لا يريد أن يفكر فقط ، لأنه لو فكر فقط فلن يوجد، وإنما يريد أن

يوجد، وأن يتطابق فكره مع وجوده، ويريد أن ينظر إلى داخل ذاته، ومن خلالها، وأن يسمع لها، ويلابس إيقاعها الباطن.

*****

ويهجر الخيام أصحابه وأهله ويعتزلهم نفسيا، فهو معهم بجسمه وليس بذاته، لأنه يريد أن يكون مع نفسه ، وأن يحافظ على ثباته وسط تغير الحياة، وينشد لوجوده أن يكون صحيحا، وأن ينأى به عن الزيف. ويريد أن تكون أخلاقة من ذاته ، وأن تكون حقيقته هى قاعدته السلوكية، وشعاره فيما يبدو: أنّ ما ينتجه الإنسان هو لنفسه، ولا وجود للحقيقة خارج ما ينتجه، وتطالبنا الحقيقة أن نعيشها، وأن تكون الحقيقة والحياة شيئا واحداً ، هو ما نوافق على الالتزام به والمخاطرة فى سبيله، وأعلى مخاطرة يمكن أن نقوم بها هى أن نختار فى حرية أن نكون مؤمنين، لأن اختيارنا للإيمان يتطلب منا أن نكون على أعلى درجة من الذاتية، وأن نرضى بعدم اليقين الموضوعى، لأن الإيمان ليس بالعقل، والإيمان لا معقول.

وفعل **الاختيار** الذى يراه الخيام يتمثل فيه الحرية والجبر معا، فنحن مضطرون أن نختار ولا يمكننا غير ذلك. ولأننا نختار فلا بد أننا أحرار فى اختيارنا. وقد نختار أن نفعل أى شئ. والإيمان فعل. وقد نختار الموت. المهم أن نستشعر الحرية، وأن نمارس فعل الاختيار، حتى لو اخترنا الضرورى والمتاح الوحيد.

*****

والخيام يرى فى الوجود أنه إشارات وعلامات لنا على الطريق، لنهتدى بها ونكتشف عن طريقها نواتنا، فنشعر بالمتعالى داخلنا خلال معاناتنا للوجود، ونشعر بالله من حولنا وداخلنا، بافتقادنا إليه!

وكأنى بالخيام **شاعر وفيلسوف وجودى**! وسِفْره الأعظم هو رباعياته، ويالها من رباعيات! ولكن أيها نصدق؟ وأيها نكذّب؟ وأيها للخيام وأيها ليست له؟

وكأنى بالخيام فيها **أول فيلسوف وجودى فى الإسلام!**

الكلمات عنده حافلة بالمعانى.. والعبارات تضج بالعواطف... وأحوال الوجود الإنسانى هى ما يهمه... والله عنده ليس تصوراً، ولا شيئاً، وإنما هو الأنت المخاطَب فى مواجهة الأنا المخاطب. والصلة بينه وبين الله تعالى هى صلة ذات بذات وليست بينهما هوة... لأنه بالحب قد أمكن رتق الهوة!!

*****

ذلك ما استخلصته من قراءاتى خلال الرباعيات. وأحسب أن رؤيتى للخيام جديدة ..وبقدر ما كان إعزازى لجوته ، بقدر ما أحببته أكثر بسبب تفسيره **للخمر** التى جاء ذكرها فى الرباعيات بكثرة، بأنها من الممكن أن تكون هى هذه الخمرالحقيقية التى نعصرها من العنب، ونشربها من القنانى وفى الكؤوس، ومن الممكن أيضا تأويلها بأنها **المعرفة اللَّدُنّية**، يتلقاها العارف بالله عن ربه وَهْبياً، وهى **المحبة** يُسقاها فيكون بها حال السُكْر من أحوال الوجد الصوفى. ودعوى جوته: أن الحياة ترتكز على القطبين فلا نستغنى عن أيهما... كالعين ترى بظاهرها الأشياء المحسوسة، وتشاهد المستور المخفى بباطن الوجدان، فتلحظ الواحد فى الكثرة... كالنبات يتكثر نباتات عن أصل النبات الواحد... وهكذا إيماننا بالله ، لأنه الواحد من وراء الكثرة. والله نراه واحداً بباطن الوجدان، ولا نملك إلا التسليم بوجوده. وفى تسليمنا بوجوده تعالى نزوعنا القوى الغالب أن يستغرقنا المطلق. والاستغراق هو الإيمان والمحبة والتسليم والتوكل!

*****

وكم أحببت الخيام وأنا أقرأ له بين السطور واستشعر خطابه لى كقارئ: وإنّ من المؤلفين لفئة هم الصفوة يتخاطبون مع قرّائهم بالشيفرة. والشعراء هم خير هذه الصفوة. وهم لا يتكلمون إلا رمزاً. والخيّام من قمم الصفوة، لأنه شاعر وفيلسوف، وحديثه فيه الظاهر والباطن، والمعقول والوجدانى، والحسّى والمعنوى، ولهذا **اعتبروا شعره من عيون التراث الإنسانى.**

والخيام بشعره الفلسفى رائد وصانع قيمة. وكان فيه متمرداً على كل من سبقوه ، وكل ما سبقه... **وشعره فى التمرد أدخله عداد فلاسفة وأدباء التمرد.**

وربما كنت سابقاً إذ أصف تمرده بأنه «**التمرد الجميل**»، فلم يكن فى تمرده عنيفاً، واختار له الشعر كوسيلة تعبير، وهو أرق وسائل التعبير وأحناها. والدراما التى خصّ بها نفسه، بفلسفته فى التمرد، تكشف عن شخصية أسطورية، يختلط فيها الخيال الأسطورى بالواقع المرير.

*****

وأحسب أنى أعضد جوته فى خطابه لحافظ، وأنقل عنه إلى الخيام بلسانه:

ياعمر ! أيها الأقدس ! لسانك قد يكون صوفياً، وقد يكون غير ذلك، فالأمر سيّان ، لأنهم فى الحالين لن يفهموك حق الفهم، ولن تعدم أن تجد منهم من يذهب فى تفسير رباعياتك

مذاهب الحمقى، وبعضهم سيفكر فيك تفكيراً دنساً، وسيقدمون باسمك الخمر النجسة! والحقيقة أنك من كل ذلك براء ، فأنت الفيلسوف ، المتألّه . زهدت فى الدنيا ولم تتصوف . وكنت الحكيم، والحكمة زيّنت حياتك، فلم تعزف عن الحياة، ولم تنكرها، وأقبلت عليها فلم تملكك!

*****

وصدقت نبوءة جوته، فما أكثر ما يمتهن الحمقى اسم الخيام ويطلقونه على الحانات والخمّارات ودور اللهو والفنادق وأصناف المخدرات والخمور!

وما أكثر ما حرّفوا فى فلسفة الخيام وأساءوا فهمه، كما حرّفوا فى ترجمة الرباعيات، وأساءوا قراءتها عن عمد!

*****

ولن نحب الخيام ونكون عُمَريّين أو خيّاميّين إلاّ إذا فهمناه بوضوح. والفهم معرفة. والمعرفة الحقة تولّد الحب!

ومرة أخرى أقول مع جوته : إن سوق الأدب حافل ويُغرى بالشراء... والمعارف فى تزايد على الدوام... وما أكثر ما كُتب وقيل عن الخيام ـ فماذا نأخذ مما قيل وكُتب ؟ وماذا نترك؟

لابد من التأنى إذن ـ شرط أن نستهدى الحب. وبدون الحب لا يمكن أن نُقبل على الشراء...فإنْ كنت أيها القارئ راغباً حقاً فى المعرفة، وتريد لها أن تعمُق وتربو، فلتحاول أن تسلك سلوك أهل المعرفة، وأن تجرّب أن تختار... متوكلاً على الله، وكلُك ثقة فيه سبحانه... لأنك وأنت تختار تمارس عملاً من أعمال الحب. والذى يحب فهو الناعم برضا الله سبحانه!

وكان جوته محقاً إذ يقارن بين حافظ الشيرازى وعمر الخيام... فكلاهما شاعر نابه ، وكانت بهما مشابهات، وتأثّر حافظ بالخيام ... وكلاهما صاحب حرفة فيما يبدو، فالخيام أو أسرته– ربّما ـ كانت تبيع الخيام أو تصنعها وحافظ كان خبّازاً... وكلاهما امتهن التدريس وكان من الحُفّاظ . ويروى التاريخ أن الخيام كان يكفيه أن يقرأ النص عدة مرات ليحفظه عن ظهر قلب . وكذلك كان حافظاً ، وأطلقوا عليه اسم حافظ لأنه من الحُفّاظ على الحقيقة... وكلاهما كتب فى الإلهيات من فروع الحكمة، وكان عاشقاً للحياة ، فقالوا عن حافظ إنه لسان الغيب وترجمان الأسرار. ووصفوا الخيام فقالوا حُجة الحق ودستور الدين وحكيم الزمان.وخلط حافظ والخيام الغزل المادى بالغزل الروحى، فلا تدرى أيهما المقصود. وكتبا فى الخمر والحانات، وعن النُدمان والساقى والدنان والكؤوس، فما تدرى... أكانا يقصدان الخمر

على الحقيقة، أم أنها الخمر التى لاغولٌ فيها، ولا نَزْف ولاصُداع، والتى عناها الصوفية فى أشعارهم؟

ولو قرأت بين سطور حافظ فستجد أصداءً من الخيام . وانظر إلى حافظ يقول ما معناه: إنّ الوعّاظ يكثرون فى المساجد وعلى المنابر، وإذا اختلوا بأنفسهم فعلوا ما لايرضى الله! ومشكلتى التى أريدك أن تسأل فيها الفقيه الواعظ: لماذا يكون الآمرون هم أقل الناس توبة؟! وكأنهم لا يعتقدون فى بعث ولا حساب، ولهذا يدجّلون على الناس، ويفسدون فى الأرض... فيارب! لتَرَ رأيك فيهم هؤلاء المنحرفين، الذين يهوون غِلمان الأتراك! وأماً أنت أيها السائل على باب الخانقاه، فانهض بسرعة، وتوّجة إلى دير المجوس، فإنهم هناك يقدمون شراباً يقوون به القلوب! وأما حُسن الحبيب ـ هذا الحُسن اللاّمتناهى ـ فمهما قَتَل من العشّاق، فإن آخرين سيأتون من الغيب ويحلّون محلهم! ويا أيها الملك: سبّح على حانة العشق، لأنهم فيها يُخمّرون طينة آدم! وفى الصباح سيُسمع صياح الديك يتردد من حول العرش. وعندئذ سيقول العقل: لعلّهم الملائكة يترنمون بشعر حافظ !

وهذا المثال السابق من شعر حافظ لدى الخيام مثله أو قريب منه. يقول :

الوعّاظ يعظون . ونحن، طلاّب الحانات، أصلح منهم، لأننا نشرب دم العنب، وهم يشربون دم الناس! والذين يأمرون بالصلاح منافقون. وخمر المجوس تُنيل المُنى، وهى روح الروح. والديك يصيح فى الصباح، وأنت مع الخيام تردد شعره، والفلك يدور، وحِسَان الأمس سيولين، وسيحل محلهن حسان وعشاق، ولانهاية للدائرة، والعُمر أضعناه فى المدارس!

وبرغم هذه المشابهة بين حافظ والخيام، فالفرق بينهما لايزال بعيداً، وهو فرقٌ فى الزمان، فالخيام من القرن الرابع الهجرى، وحافظ من القرن الثامن. وفرقٌ فى التفكير والتحضُّر، فحافظ يلتقى فيه التصوّف الرمزى الصريح كما يتمثّل عند العطّار والجلال الرومى، بالسبك الرفيع والصناعة المتقدمة كما يتمثلان عند السعدى. وحافظ استطاع ـ بتعبير **الدكتور عبد الرحمن بدوى** ـ أن يجمع بين هذين القطبين فى تجربة روحية تشبه إلى حدٍ ما تجربة الخيام، وإن كانت أكثر عمقاً، وأقلّ حسّية.

وأختلف مع **الدكتور بدوى**، ولا أرى أن تجربة الخيام كانت أقل عمقا وأكثر حسّية، لأن حافظ من السهل تأويله، وليس الأمر كذلك مع الخيام. لأن الخيام بكل المعايير فيلسوف، وشعره لذلك فيه الظاهر الحسّى، وفيه بالتأكيد الباطن الذى يحتاج إلى غوّاص، بوسعه أن يسبر أغواره، ويستخرج لؤلؤه المكنون.

والخيام فيلسوف ـ ولا أقّل عن فيلسوف، له اتجاهاته ورؤياه، ليتفهمه ويحس بنبضه ويستوعب أفكاره، ويوضح الغامض منه.

ويشير الدكتور بدوى إلى أن الناس لم يختلفوا كثيراً فى دلالة شعر الخيام، وأن ما يُثار فى هذا الصدد من أقوال، تحاول أن تأخذ جانب التفسير الصوفى عند الخيام، فمرجعه غالباً إلى نزوات عابرة عند باحثين متحذلقين، يبتغون الابتداع والتجديد الزائف. أو أن مرجع هذه النزعة عاطفة دينية عمياء متحمسة للخيام، تريد الدفاع عنه بأية وسيلة!

ويقول الدكتور إن شعر حافظ، علي العكس، صادر عن نفس لم تعذّبها الحيرة إلاّ قليلا، ولم تحفل بالتالى كثيرا بتبرئة نفسها. ولهذا جاء شعر حافظ صريحاً، سواء فى تصوّفه، أو في شهوانيته الحسيّة. وكانت طبيعته مزيجاً من الناحيتين الصوفية والحسية. وهو فى الناحيتين عميق. وعمقه فيهما هو الذى يجعل أمر تفسيره شاقاً مشكلاً، بعكس الخيام الذى كانت الناحية الصوفية عنده ـ إنْ كانت قد وُجدت حقا ـ فقيرة أو كالمعدومة، بينما طغت الناحية الأخرى (الفنية) فى أناقة ودقة لاحدّ لهما، وارتفعت بالناحية الشهوانية الحسّية عنده إلي مرتبة ممتازة.

ويقارن الدكتور بين **حسّية بودلير وحسية الخيام** . وعنده أن الخيام أعمق. وعمقه بمعنى النفاذ إلى الأسفل، وليس الارتفاع إلى الأعلى ـ أى الارتفاع روحياً وصوفياً. فإذا جاز أن نعتبر بودلير يمثل نوعاً من التصوّف ـ وهو التصوّف إلى أسفل ـ فإنّ حافظاً يمثل التصوّف إلى الأعلى، بينما الخيّام يحتل المركز المتوسط بينهما. وكل ذلك من داخل التصوّف الحسّى إن صحّ هذا الجمع بين المتناقضات. وهذا العلو يَقْرُب كثيرا من درجة المزج بين الحسيّة الروحانية فى شعر حافظ ـ فهو في الذروة العليا من الحسّية، التى تكون أيضا الدرجة الدنيا للروحانية، أو هو فى القمة التى تلتقى عندها أرقى حسّية مع أعمق روحانية، فى وحدة مليئة بالتوتر والتناقض الخصب.

والرأى عندى أن تفسير الخيام أو حافظ يتوقف أولاً وأخيراً على الذات المفسّرة، وعلى قدرتها على استقراء شيفرة الرسالة بين ذات الشاعر وذات القارئ.

وجوته أعجبه في حافظ إقباله على السرور، على كل ما تتيحه اللحظة الحاضرة، واللحظة التى مضت واستدمجت فى اللحظة الحاضرة، ويصف حافظاً بأنة «**حكيم سعيد**».

ولعلى لا أميل إلى وصف الخيام بالسعادة، وإن كنت أوّمن على وصفه بالحكمة وأزيد على ذلك فأقول إن الخيام «**حكيم وجودى**».

وكان حافظ بُلبلاً غرّيداً، إنْشقّ صدره وتعرّى قلبه وتعلّق بصره بالسماء، يصدح بأعذب الترانيم. وكان الخيام أرغولاً حزينا، وإنشاده فيه شجن، ولغته مشحونة شحناً عالياً بالفلسفة، تفصح عن عمق أصيل، وتكشف عن نفس متطلعة للتعالى. وحديثه في الرباعيات يظهر فيه قادرا على التفلسف، وعلى إدارة الحوار، وسوق الحُجج. وهو صوفى، ولكن صوفيته هى صوفية الوجوديين القائلين بالعبث واللامعقول، ومن ثم كان زهده فريدا، وخوفه من اللّه فيه الحُب والرهبة، والعشق والإجلال، والرجاء واليأس، والأمل والقنوط.

والمشكلة فى الخيام أنه يكتب الفلسفة شعراً ، ويسبكها بصياغة فنية، ويريدها أقوالاً سيّارة تجرى مجرى الأمثال،

وعلى عكس ما يقول أستاذنا الدكتور بدوى ـ أطال اللّه فى عمره ـ فإن رباعيات الخيام فيها الرمزية، بل فيها من الرمزية الكثير الكثير، وإلاّ فكيف نُسمى الفصل منها المُعَنْون «كوز نامه» أو «كتاب الكوز»؟ والكوز المقصود هو دِنّ أو كأس الخمر. وهذه الرمزية هى التى تحيّر النقاد، وهى التى تضاربت بشأنها الأقوال فى الخيام، فقال بعضهم: الخيام حُجة الحق والتالى على ابن سينا ولايمكن أن يسفِّ ويتبذل! وقال البعض: الخيام أبيقورى وإباحى وتناسخى وزنديق!

ومثل ذلك حدث مع كثيرين. وأذكر أن الخوارج رفضوا اعتبار سورة يوسف من القرآن، لأنهم حملوا ألفاظ «راودته وهَيْتَ لك وهمّت به» من ألفاظها، على ظواهرها، وأساءوا فهم مشهد الغواية. وكذلك اشتد الجدل فى حافظ في القرن العاشر، ورُفع أمره إلي أعلى سلطة دينية، وطلبوا استصدار فتوى بتحريم شعره. ويذكر **حاجى خليفة** صاحب الكتاب المرجع **كشف الظنون** أن المفتى نبّه إلى التناقض في المعانى في شعر حافظ، وإلى أن ذلك يستلزم تبايناً فى التفسير. وذكر أن شعره فيه الطيب المقبول، والكثير القابل للطعن، وعلي القارئ أن يميز هذا من ذاك.

والفتوى فيها صدق، وتفسير حفاظ أو الخيام يتوقف على ذات القارئ. وكل أثر أدبى عظيم لابد أن يتضمن الظاهر والباطن ـ وإلاّ فماذا فى دون كيشوت والكوميديا المقدسة ورسالة الغفران ومزامير داود ونشيد الإنشاد لو أننا قرأناهم من الظاهر ولم نعتبر الرمز فيهم، ولم نلجأ إلى التأويل؟

وهذه الازدواجية هى التى تنبه لها المفتى، ونبه إليها، وهى التى بلبلت المفسرين، وحيرت

المترجمين. وهى أيضا التى أغرت المنتحلين على التزييف على الخيام، والادعاء عليه بما لم يكن فيه، وبما لم يقله، فأضافوا إلى رباعياته التى ربما لم تزد على العشرين، أو لم تتجاوز – على أكثر تقدير – الستين رباعية – أضافوا المزيد والمزيد، حتى بلغت الثلاثمائة أو أزيد قليلا، ثم تنامت الإضافة فجاوزت الخمسمائة، ثم زادت إلى الثمانمائة – ثم الألف ثم الألفين – حتى قال بعضهم إن الرباعيات الآن نحوٌ من الخمسة آلاف أو أكثر!!!

والكثيرون الذين يحكمون على الخيام، ويقضون فيه برأى، لا يذكرون شيئا عن الرباعيات المنحولة، وإنْ ذكروا ذلك وأكدوا عليه راحوا يتعاملون مع كل الرباعيات صحيحة ومنحولة – على حد سواء، ونقدوها جميعا على استواء، وترجمها المترجمون فلم يميزوا المنحول من الصحيح، وخلطوا الحابل بالنابل، واكتفوا بقراءة الخيام فى الرباعيات، ولم يرجعوا إلى كتاباته النثرية التى يشرح فيها فلسفته، وأشعاره العربية التى لم يُختلَف على نسبتها إليه، ولو فعلوا لكان ذلك لهم معيارا يقيسون إليه الرباعيات، فيقضون فى الزائد منها المنحول، والصحيح الأصيل، فما لاينسجم مع شخصية الخيام التى حددها المؤرخون ووصفها الواصفون، وما لا يتفق مع فلسفته ومذهبه اللذين أفاض فى شرحهما الخيام وزاد، لابد أن يكون زائفا، ولاينبغى أن يُعتدّ به، ويتوجب تنحيته وتنقية الرباعيات منه.

وهذا الكتاب آليت على نفسى أن أحاول قدر استطاعتى أن أواصل فيه مابدأه البعض، فأجلو الحقيقة، وأردّ الحق لأصحابه، وسوف نناقش فيه **لغة الشعر والتصوف وفلسفة الخيام**، وسنحاول أن نحلل ماقيل ومايقال عن الخيام، ونستخلص صورة عامة لهذا الشاعر العظيم والفيلسوف المجيد. وسيكون علينا أن ننبه باستمرار إلى مابدأنا به الكتاب نقلا عن أبى العلاء المعرى: إن أقصى مانستطيع مع الخيام هو أن نظن ونحدس.

**عبدالمنعم الحفنى**

*****